**المبحث الثالث: قضيَّةُ اللَّفْظ والمعنى**

ما من كتاب كُتِب في نقد الشِّعر إلا وتكَلَّم عن ثنائية اللَّـفظ والمعنى، وما ذلك إلا لعظيم مكانتها، ولكونها مدارا تدور عليه أفلاك المسائل النَّقديَّة، وتستهدي بدليلها المَلَكَاتُ البيانِيَّة، قال ابن رشيق القيرواني:" اللَّفْظُ جِسمٌ، ورُوحُه المعنى، وارتباطه به كارتباط الرُّوح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوَّتِهِ "[[1]](#footnote-2)، ولم يكنِ ابن خلدون بَمَعْزَلٍ عَن هذه القضيِّة، بل تناولها بالذِّكرِ والتَّحقيق في فصل عَقَدَهُ بعنوان:«الفصلُ السَّادِسُ والخمسون في أنَّ صناعة النَّظْمِ والنَّثْرِ إنَّما هي في الألفاظ لا في المعاني»، ورغم ما نجدهُ من الإطلاق العامِّ ليشملَ النَّظمَ والنَّثْرَ إلا أنَّنا نجدُهُ يسابق إلى تخصيص القضيَّة لينحوَ بها مسلكًا قديما سَلَكه من قبله أسْلافُهُ المتقدِّمونَ، قال في الفصل السَّادس والخمسون من كتاب العبر:" اعلم أنَّ صناعة الكلام نظمًا ونثرا إنَّما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنَّما المعاني تبع لها وهي أصل، فالصَّانع الَّذي يحاول ملكة الكلام في النَّظم والنَّثر إنَّما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجَرْيُهُ على لسانه حتَّى تستقرَّ له الملكة في لسان مُضَر ويتخلَّص من العُجْمَةِ الَّتي رُبِّيَ عليها في جيله، ويفرضُ نفسه مثلَ وَليدٍ نَشَأَ في جيلِ العرب، ويُلقَّن لغتهم كما يلقَّنها الصَّبِيُّ حتَّى يَصير كأنَّه واحد منهم في لسانهم، وذلك أنَّا قدَّمنا أنَّ للِّسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللّسان حتَّى تحصل شأن الملكات، والَّذي في اللِّسان والنُّطق إنَّما هو الألفاظ وأمَّا المعاني فهي في الضّمائر.

وأيضا فالمعاني موجودةٌ عندَ كُلِّ واحد وفي طوع كلِّ فِكْرٍ منها ما يشاء ويرضى، فلا يحتاج إلى تكلُّف صناعة في تأليفها، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصّناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني، فكما أنَّ الأواني الَّتي يُغْتَرَفُ بها الماء من البحر منها آنية الذَّهب والفضَّة والصَّدف والزُّجاج والخَزَفِ والماء واحدٌ في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء، كذلك جودة اللُّغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدة في نفسها وإنَّما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللّسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المُقْعَدِ الَّذي يَرُومُ النُّهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه "[[2]](#footnote-3)

فبَيِّنٌ إذن بقراءة أوَّليَّة للمتن أنَّ ابن خلدون يذهب مذهبا واحد في قضيَّة اللَّفظ والمعنى، ويحيد هذه المَرَّة عن ذكر المذاهب والأقوال كما فعل ابن رشيق في العمدة، فيختار قولا واحدا ويمضي في تعزيزه والاستدلال له، بل ويضرب الأمثلة حتَّى لا يَدَع للمُتلقي أي ريبة في معرفة مذهبه المختار، وقبل الولوج في هذا المذهب الذي انتحاه ابن خلدون نذكر من كلام ابن رشيق ما يضعنا في الصورة الصَّحيحة من معرفة مذاهب أهل النَّقد في هذه القضيَّة، ولكي تتَّضح لنا بعد ذلك مواطن الأصالة أو التَّجديد في مذهب ابن خلدون النَّقديِّ.

**تأسيس قضيَّة اللَّفظ والمعنى عند ابن رشيق القيرواني:**

عقد ابن رشيق في كتاب العمدة بابا مستقلا ووسمه" باب في اللَّفظ والمعنى"، قدَّم في أوَّله تمهيدًا للمذهب الذَّي يختاره هو، ومذهبه في ذلك كما صرَّح أنَّ العلاقة بين اللَّفظ والمعنى علاقة تكامليَّة، ليس يَفْضُل المعنى عن اللَّفظ فيها ولا يَشْرُف اللَّفظ عن المعنى كذلك، " فإذا سَلِمَ المعنى واخْتَلَّ بعضُ اللَّفْظِ كان نَقْصاً للشِّعْرِ وَهُجْنَةً عليه وإنِ اختَلَّ المعنى كلُّه وفَسَدَ بَقِيَ اللَّفْظُ مَوَاتاً لا فائدةَ فيه، وَإِنْ كان حَسَنَ الطَّلاوةِ في السَّمْعِ "[[3]](#footnote-4)، ثم يَذْكُر بعدَ ذلك ابن رشيق مذاهب القوم في قضيَّة اللَّفظ والمعنى ويصنِّفهم أربعة مذاهب على النَّحْو التَّالي[[4]](#footnote-5):

* المذهب الأول:

قَوْمٌ يَذْهَبُونَ إلى فَخَامَةِ الكلام وجَزَالَتِهِ، على مذهب العَرَبِ مِنْ غَيْرِ تَصَنُّعٍ، كَقَوْلِ بَشَّار بن بُرد:

|  |  |
| --- | --- |
| **إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّـةً ْ** | **هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمْطِرَ الدَّمَا** |
| **إذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّداً مِنْ قَبِيلَةٍ** | **ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا[[5]](#footnote-6)** |

وَهَذَا النَّوْعُ أَدَّلُ عَلَى القُوَّةِ، وَأَشْبَهُ بِمَا وَقَع فيه من مَوْضِعِ الاِفْتِخَارِ، وَكَذلك مَا مُدِحَ بِهِ المُلُوكُ يَجِبُ أَنْ يَكُونُ مِنْ هَذَا النَّحْتِ.

* المذهب الثَّانـي:

قَومٌ أصْحَابُ جَلَبَةٍ وَقَعْقَعَةٍ بلا طَائِلِ مَعْنى إلا القليلَ النَّادِر، كأبي القَاسِم بنِ هَانِئ ٍوَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ أَوَّل مذهبته:

|  |  |
| --- | --- |
| **أَصَاخَتْ فَقَالَتْ: وَقْعُ أَجْرَدَ شَيْظَمِ ْ** | **وَشَامَتْ فَقَالَتْ: لَمْعُ أَبْيَضَ مِخْذَمِ** |
| **وَمَا ذُعِرَتْ إلا لِجَرْسِ حُلِيِّـهَا** | **ولا رَمَقَتْ إلا بُرًى فِي مُخَدَّمِ[[6]](#footnote-7)** |

وليسَ تَحْتَ هَذَا كُلِّهِ إلا الفَسَادُ وَخِلافُ المُرَادِ، ما الَّذِي يُفِيدُنَا أنْ تَكُونَ هَذِهِ المَنْسُوبُ بِهَا لَيْسَتْ حُلِيَّهَا فَتَوَهَّمَتْهُ بَعْدَ الإصَاخَةِ وَالرَّمَقِ وَقْعَ فَرَسٍ أو لَمْعَ سَيْفٍ؟ غَيْرَ أَنَّها مَغْزوة في دارها أو جاهلة بِمَا حَمَلَتْهُ مِنْ زِينَتِهَا، وَلَمْ يَخْفَ عَنَّا مُرَادُهُ أَنَّهَا كَانَتْ تَتَرَقَّبَهُ! فَمَا هَذَا كُلُّهُ؟

* المذهب الثَّـالث:

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إلى سُهُولة اللَّفْظِ فعني بها، واغتفر له فيها الرَّكاكة واللِّين المُفْرِطُ كأبي العَتَاهِيَّة، وعَبَّاسِ بن الأَحْنَف، ومن تابعهما.

* المذهب الرَّابـــع:

وَأَكْثرُ النَّاسِ على تَفْضِيلِ اللَّفْظِ على المعنى، سمعتُ بَعْضَ الحُذَّاقِ يقول: قال العلماءُ: اللَّفْظُ أغْلَى مِنَ المَعْنَى ثمناً، وأعظمُ قِيمَةً، وَأَعَزُّ مَطلباً، فإنَّ المَعَانِي موجودةٌ فِي طِبَاعِ النَّاسِ، يَسْتَوِي الجَاهِلُ فِيها والحَاذِقُ، وَلكنَّ العملَ على جَوْدَةِ الألفاظِ وحُسْنِ السبك وَصِحَّةِ التَّأْلِيفِ، ألا تَرَى لو أَنَّ رَجُلاً أرادَ فِي المَدْحِ تَشْبِيهَ رَجُلٍ لَمَّا أَخْطَأَ أَنْ يُشَبِّهَهُ فِي الجُودِ بالغَيْثِ والبَحْرِ، وَفي الإقْدَامِ بالأَسَدِ، وفي المَضَاءِ بالسَّيْفِ، وفي العَزْمِ بالسَّيْلِ، وَفي الحُسْنِ بالشَّمْسِ، فَإنْ لم يُحْسِنْ تَرْكيبَ هذه المَعَانِي في أَحْسَنِ حُلاها مِنَ اللَّفْظِ الجَيِّدِ الجَامِع للرِّقَّةِ والجَزَالَةِ والعُذُوبَةِ والطَّلاوةِ والسُّهُولَةِ لَم يَكُنْ للمعنى قَدْر.

وَبَعْضُهُم وَأظُنُّهُ ابن وَكيعٍ مَثَّلَ المعنى بالصُّورَةِ واللَّفْظَ بِالكِسْوَةِ، فَإِنْ لَمْ تُقَابِلِ الصُّورةُ الحَسْنَاءُ بِمَا يُشَاكِلُهَا وَيَلِـيقُ بِهَا مِنَ اللِّباس فقد بَخَسْتَ حَقَّهَا، وتَضَاءَلَتْ فِي عَيْنِ مُبْصِرِهَا.

وقال عبدُ الكريم وكان يُؤْثِرُ اللَّفْظَ على المعنى كثيراً في شِعْرِهِ وتآليفه: الكَلامُ الجَزْلُ أَغْنَى عَنِ المَعَانِي اللَّطِيفَةِ مِنَ المَعَانِي اللَّطِيفَةِ عَنِ الكَلام الجَزْلِ، وإنَّمَا حَكَاهُ وَنَقَلَهُ نَقْلاً عَمَّنْ رَوَى عَنْهُ النَّحاس.

ومنْ كَلامِ عَبْدِ الكريم: قالَ بَعْضُ الحُذَّاقِ: المَعْنَى مِثَالٌ واللَّفْظُ حَذْوٌ، وَالحَذْوُ يَتْبَعُ المِثَالَ فَيَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِهِ وَيَثْبُتُ بِثَبَاتِهِ.

**مذهب ابن خلدون في قضيَّة اللَّفظ والمعنى:**

وبعدما عرفنا مذاهب القدماء في قضيَّة اللَّفظ والمعنى، نستطيع القول أنَّ ابن خلدون قد وافق جمهور النُّقاد والحُذَّاق، وسار على أصالتهم في تبني مذهب الجمهور، وهو تفضيل اللَّفظ على المعنى، وقد صرَّح به تصريحًا سافرًا في قوله:" اعلم أنَّ صناعة الكلام نظمًا ونثرا إنَّما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنَّما المعاني تبع لها وهي أصل"، مستظهرين بذلك الأصالة في اختياره ونقده، مع بعض التوجيهات الَّتي يبنيها على تجديده وتَجرِبَته، وهكذا ضلَّت الأصالة في طرف والتَّجديد في طرف، وحبلُ ابن خلدون يصل بينهما في نظام متوازن غير مُختلٍّ.

1. ابن رشيق، المصدر السَّابق، ج1، ص 124. [↑](#footnote-ref-2)
2. ابن خلدون، المصدر السَّابق، ج1، ص789. [↑](#footnote-ref-3)
3. ابن رشيق، المصدر السَّابق، ج1، ص 124. [↑](#footnote-ref-4)
4. المذاهب منقولة من العمدة في باب اللَّفظ والمعنى مع تصرف يسير. [↑](#footnote-ref-5)
5. ديوان بشَّار بن بُرد، شرح وتحقيق مُحمَّد الطَّاهر ابن عاشور، مطبعة مجمع اللغة العربيَّة، مصر- القاهرة، ط1، 1966م، ج4، ص163. [↑](#footnote-ref-6)
6. ديوان ابن هانئ الأندلسي، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت، لبنان- بيروت، ط1، 1980م،ص 313. [↑](#footnote-ref-7)